المنظومة الأخلاقية في السيرة النبوية العطرة التجليات والغايات

د. رشيد كُهُوس

جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب

الملخص :

إن السيرة النبوية الطاهرة بنيت على مكارم الأخلاق ومنها انطلقت وإليها سعت، لذلك لخص النبي صلى الله عليه وسلم المقصد الأسمى من بعثته الغراء في إتمام مكارم الأخلاق وصالحها وحسنها.

وتأسيسا عليه، جاء هذا البحث ليبرز الآثار الكبرى والتجليات العملية للمنظومة الأخلاقية في السيرة النبوية ومقاصدها الكلية، وغاياتها السامية، وذلك من خلال محورين رئيسين:

أولهما عن مكانة مكارم الأخلاق وصالحها في الرسالة النبوية.

وثانيهما عن الغايات الوظيفية والأبعاد الكلية للمنظومة الأخلاقية.

الكلمات المفتاحية : المنظومة، الأخلاق، السيرة النبوية، التجليات، الغايات.

المنارة للاستشارات

www.mar

Abstract:

The pure biography of the Prophet was built on the morals of the Prophet (peace and blessings of Allah be upon him). The Prophet (peace and blessings of Allah be upon him) summed up the supreme purpose of his mission to adhere to the values of ethics and good deeds.

And based on it; this research came to highlight the great effects and practical manifestations of the moral system in the biography of the Prophet and its ultimate purposes, its supreme goals, through two main axes:

The first is about the status of morality and its interest in the Prophet's message.

And secondly, on the functional goals and overall dimensions of the ethical system

Keywords: System, Morals, the Biography of the Prophet, Revelations, Purposes.

مقدمة :

الحمد لله البر الرحيم، الفاطر الصمد العليم، الذي بعث سيدنا محمدا بالحنيفية السمحة والدين القويم، وبصر به بعد العمى وكشف به الغمة وهدى به من الضلالة وفضله بالخلق العظيم، صلى عليه وعلى آله وصحبه المتخلقين بأخلاقه السائرين على منهاجه أفضل الصلاة والتسليم.

أما بعد؛

فإن المنظومة الأخلاقية هي استكشافٌ للوجود الذاتي ومعرفةُ الإنسانِ لنفسه وتجردُه من الحيوانية وتشبهه بالملائكية، وهو تطهير النفس وتهذيبُها وتزكيتها وتربيتها تخليا وتحليا وتجليا،

المنارة للاستشارات
www.mar

لترتقي في المقامات الروحية العلوية وتتدرج في سلم الصلاح ودرج الربانية، مقتحمةً العقباتِ التي تقف في طريقها إلى الله تعالى وتقطع اتصالها بموجدها ومنشئها من العدم.

إن الأخلاق هي جوهرُ رسالاتِ السماء على الإطلاق، وإن من أهم مقاصد البعثة النبوية الغراء إتمامُ صالح الأخلاق ومكارمها وبناءُ صرحها ودعامتها، وإشاعةُ روحها في نفوس الأفراد والأسر والمجتمعات، والعملُ على تقويمها.. بل إن الهدف الأساسَ من كلِّ رسالات السماء هدف أخلاقي.. وبقاءُ الأممِ واستمرارُها مرتبط بأخلاقها، إن صَلَحت بقيت وعزت واستمرت، وإن فسدت فنيت وذلت وذهبت..

إن الأخلاق هي الميزانُ الذي توزن به خَطَوات الأفرادِ والجماعات والأمم، بل هي الأساسُ الذي تبنى عليه عظمةُ الأمم ونهضتُها.. ولقد ربى النبي ﷺ أصحابه على مكارم الأخلاق والقيم الإسلامية. ولخص المقصَدَ النبيل من بعثته الغراء في قوله ﷺ: «إنما بُعِثت لأتمِّم صالح الأخلاق»[1]، وفي رواية: «مكارم الأخلاق»[2].

ولذلك كان النبي ﷺ يدعو الناس إلى مكارم الأخلاق وأحاسن الصفات، ويسعى إلى تخليصهم من رذائل الأخلاق، ليكونوا ربّانيّين في حياتهم وأخلاقهم، متحلّين بالفضائل الإنسانيّة الكريمة، مستقيمي السلوك، خيّرين في أعمالهم، وكان قدوة كاملة ومثلا أعلى وأنموذجا للأخلاق قولا وفعلا ومعاملة.

ومن ثم كانت سيرته الطاهرة المصدرَ الأساس لقيم الأخلاق ومحاسن الخصال ومكارم الآداب، بل عرف النبي ﷺ قبل بعثته بالأخلاق، وكان يعرف بالصادق الأمين، كما كان بعد بعثته عظيمَ الأخلاق، كريم السجايا، حميد الصفات، نقي الفطرة، جميل السيرة، طاهر السريرة.

إن سيرته ﷺ الطيبة الجامعة هي الأسوةُ الحسنة، والمنهاج الأعلى للحياة الإنسانيّة في جميع أطوارها، لأنها مِلَاكُ الأخلاق وجِماع القيم؛ وهي بحر لجيّ انصبت فيه جميعُ الأنهار واتصلت بها جميعُ البحار من أخلاق الأنبياء والرسل السابقين...

فهداياتها الخلقية نور للمستنير، ونبراس للمستهدي، وملجأ لكل مسترشد، ورحمة للخلق كافة.

المنارة للاستشارات
www.mar

لذلك كان من أولى الأوليات وأوجب الواجبات وأعظم الضروريات والكليات الشرعية التي يجب أن تصرف إليها العنايةُ في هذا العصر الذي تفسخت فيه الأخلاق، وتفككت الروابطُ الاجتماعية، وانغمس الناس في الملذات والتقاليد الغربية.. المنظومةُ الأخلاقية النبوية التي بالاستهداء بها امتلأت قلوبُ صحبِه بتعظيمه ومحبّته، واتّباع هديه وسنّته، وتعظيم شرعه وملّته، فحصّلوا السعادة الأبديّة والسيادة السرمدية، وفازوا برضا ربّ العالمين؛ الذي هو غايةُ رغبةِ الراغبين، ونهاية آمال المؤمّلين.

ولذلك جاء هذا البحث ليبرز الملامح الكبرى للمنظومة الأخلاقية النبوية، وإبرازِ مكانة الأخلاق في الرسالة السماوية المحمدية الخاتِمة.

أسئلة البحث:

- ✓ ما هي مكانة الأخلاق في منظومة القيم الإسلامية؟
- ✓ وما هي تجلياتها العملية في المنهاج النبوي؟
- ✓ كيف أسهمت الأخلاق النبوية في تطهير باطن الإنسان من علله النفسية وعرجت به إلى مرتبة الأنسنة الصالحة والآدمية المكرمة؟

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى بيان المعالم الكبرى لمكارم الأخلاق في السيرة النبوية وغاياتها الكلية.

عناصر البحث:

تحقيقا للأهداف السابقة سأولي العناية بمبحثين رئيسين:

المبحث الأول: مكانة الأخلاق المحمودة في الرسالة النبوية.

المبحث الثاني: الغايات الوظيفية والأبعاد الكلية للمنظومة الأخلاقية.

المنارة للاستشارات
www.mar

المبحث الأول: مكانة مكارم الأخلاق وصالحها في الرسالة النبوية الخاتمة

تُعرف الأخلاق بأنها المبادئُ والأحكام والآداب المنظمةُ لسلوك الإنسان في علاقته بنفسه، وعلاقته بربه، وعلاقته بأخيه الإنسان، وعلاقته بالكون من حوله. والتي يحددها الوحيُ لتنظيم حياة الآدميين على نحو يحقق الغاية من وجودهم على الوجه الذي يرضاه الله تعالى.

ذلك بأن الأخلاق الإسلامية شاملةٌ لكل تصرفات الإنسان ومشاعره وتفكيره وتصوراته، ولا يوجد في المنهاج القرآني النبوي عمل واحد يخرج عن دائرة الأخلاق[3].

إن القيم الخلقية تصورُ حركةَ الترقي ومجاهدةَ الظاهر والباطن، فهي روحُ الإسلام وهي صورةٌ من أهم صور السلوك إلى الله تعالى والعروجِ إليه والقرب منه في زمن ضُيعت فيه الأخلاق والقيم، وحلت محلها الماديات المَقيتةُ، والأخلاق المذمومة، فنحن اليومَ في أمس الحاجة إلى العودة إلى الأخلاق كحاجتنا إلى المأكل والمشرب والملبس، بل وأكثر من ذلك بكثير؛ إذ في المأكل والمشرب والملبس تأمين للحياة العاجلة، وفي الأخلاق والقيم تأمين للحياة السرمدية الآجلة.

ومكارم الأخلاق من أهم الخُطوات في الطريق إلى الله تعالى؛ كيف لا وهي مقصد الرسالات السماوية التي تسعى إلى تحقيق روح الأخلاق بالتشريعات الملزمة لدفع الناس إلى طريق الخير والصلاح والنأيِ بهم عن طريق الشرور والفساد، ولا تتحقق للإنسان السعادة إلا بالأخلاق.

ولذلك نشأ "رسول الله ﷺ والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية، لمَا يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلًا أفضلَ قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم حسبًا، وأحسنَهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانة وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهًا وتكرمًا حتى ما أسمه في قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة"[4].

المنارة للاستشارات
www.mar

ولما جاء أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها حين نزل الوحي عليه وأخبرها ما وقع له في غار حراء قال: «لقد خشيت على نفسي» فقالت خديجة: «كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَّل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[5].

إذ جمعت له أمنا خديجة رضي الله عنها جميع مكارم الأخلاق التي يمكن أن يتصف بها أحد، ومن هذا الوصف نعرف أنه كان ﷺ يحسن إلى من يعرف وتربطه به صلة (صاحب الرحم)، ويحسن إلى من لا يعرف (المعدوم)، ويحسن إلى من لا يحتاج (الضيف)، ويحسن إلى من يحتاج (الكلّ)، ثم الأجمل والأتم، يحسن إلى كل من نزلت به نازلة (تعين على نوائب الحق) ، وهو من أوسع أعمال الخير، لأن هذه الإعانةَ لا تقتصر على باب واحد من أبواب الخير، لأن صاحب النازلةِ قد يحتاج إلى مساعدة بالمال، وقد يحتاج إلى مساعدة بالجاه، وقد يحتاج إلى مساعدة بالتصبير والمواساة، أو إلى النصح والمشورة، أو إلى إعالة أحد الأبناء، فكان صاحب النائبة يجد عند رسول الله ﷺ كل ذلك[6].

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "وصفته بأصول مكارم الأخلاق؛ لأن الإحسان إما إلى الأقارب أو إلى الأجانب، وإما بالبدن أو بالمال، وإما على من يستقل بأمره أو من لا يستقل، وذلك كله مجموع فيما وصفته به"[7].

وقال الإمام النووي: "قال العلماء رضي الله عنهم: معنى كلام خديجة رضي الله عنها: إنّك لا يصيبك مكروه؛ لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق وكرم الشّمائل. وذكرت ضروبا من ذلك وفي هذا دلالة على أنّ مكارم الأخلاق وخصال الخير سبب السّلامة من مصارع السّوء"[8].

وهكذا تبين لنا أم المؤمنين خديجة الكبرى ما اتصف به سيد الوجود ﷺ من كمال في الأخلاق.. كلاّ، يا أكمل الكملة، لن يقع لك ما تخوّفه على نفسك الزكيّة العليّة من ضعف عن تحمّل أعباء ما شرّفك الله به من رسالة الخلود، ولن تعجز عن القيام بموجبات تبليغها؛ لأنّ الله تعالى هو الذي اختارك لها، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وقد فطرك على أفضل ما فطر عليه أحدًا من خلقه، فلن يخزيك أبدًا، ولن يحزن قلبك العظيم بوقوع شيء مما تشفق منه وتخافه على نفسك، لأنّ فيك من خصال الجبلّة الكماليّة، ومحاسن الأخلاق الرضيّة، وفضائل الشيم

المنارة للاستشارات
www.mar

المرضيّة، وأشرف الشمائل العليّة، وأكمل النحائز الإنسانيّة ما يضمن لك الفوز، ويحقّق لك النُّجح والفلاح، وستظفر بطلبتك، وتؤدّي رسالتك، ويخلد ذكرك! [9].

عن سعد بن هشام بن عامر، قال: أتيت عائشة-رضي الله عنها-، فقلت: يا أم المؤمنين، أخبريني بخلق رسول الله ﷺ، قالت: «كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن، قول الله عز وجل: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: 4]» [10].

وكون خلقه القرآن هو أنه كان متمسكا بآدابه وأوامره ونواهيه ومحاسنه ويوضحه أن جميع ما قص الله تعالى في كتابه من مكارم الأخلاق مما قصه من نبي أو ولي أو حث عليه أو ندب إليه كان صلى الله تعالى عليه وسلم متخلقا به وكل ما نهى الله تعالى عنه فيه ونزه كان صلى الله تعالى عليه وسلم لا يحوم حوله[11].

والخلق العظيم هو جوهر رسالته ﷺ، فهو القائل: «بعثت لأتمم حسن الأخلاق»[12]. ولقد عاش سيدنا رسول الله ﷺ بالأخلاق منذ نعومة أظفاره إلى أن لقي ربه، وكان جامعا لكل خصال الخير وجميع الفضائل الإنسانية، ولذلك كان قومُه ينادونه بصفة نادرة في ذلك الزمان وقبل أن يبعث؛ فقد نادوه وعرف بينهم بـ"الصادق الأمين".

والأمانة أجمع مكرُمة لمكارم الأخلاق، ولن يكون أمينًا قط من يفقد في أخلاقه مكرمةً من المكارم، فالأمين هو ذو الخلُق العظيم، الجامع لأشتات الفضائل، والأمن هو الكامل في استقامته مع نفسه، ومع جميع الخلق، تجمع القلوب على محبّته، ويثق به من يعرفه ومن يسمع عنه، من شهده ومن غاب عنه، وهذه الثقة تظهرُه على أسرار الناس، فيعرفها كما يعرف علانيتهم، لا تخفى عليه منهم خافية، يحفظهم في غيبهم كحفظه لهم في شهودهم، يأنسون به، ويركنون إليه في أعمالهم ومصالحهم، ويأمنونه على أعزّ ما عندهم من ودائعهم المادية والقلبيّة، تهجس في خواطرهم الفكرة تريد متنفّسًا بالكلمة، فيخافونها إلا إذا كانت همسًا للأمين، فإن رأى خيرًا أعان عليه، وإن رأى شرا نصح وحذّر!

وقد كان أداء الأمانة خُلُقًا أثيرًا في مكارمه ﷺ، ولم يعرف لقب الأمين على إطلاقه إلا له صلى الله عليه وآله سلم.

المنارة للاستشارات
www.mar

وهل يوجد في تاريخ البشريّة أقوى دلالة على تميّزه ﷺ بأداء الأمانة من إجماع بطون قريش على الرضا بحكمه وهم يبنون الكعبة المشرّفة أعزّ مفاخرهم[13].

ولهذا فإن عظمة سيدنا محمد ﷺ ليست في أنه يمتاز بمجموعة من الأخلاق العالية فحسب، فهو الأمين إذا ذُكرت الأمانة، وهو الصادق إذا ذكر الصدق، وهو الوفي الكريم، الزاهد، الشجاع، المتواضع، الرحيم، البار، الحكيم، الفصيح، البليغ، العابد، الزاهد، العادل، كان مولانا رسول الله ﷺ هذا كلّه وكان فوق هذا، فكانت أخلاقه فوق الصعاب وفوق كلِّ الظروف والتقلبات التي تأتي بها الأيام، لقد كان قادرًا على أن يلتزم الموقف الأخلاقي المناسب، مهما تكن اللحظة التاريخية حرجة وحاسمة، إنه نبي يشرع بسلوكه، وينطلق من منهاج واضح، ومحجة لاحبة، وليس من رد فعل؛ تمليه أو تفرضه أية ضغوط أو ظروف[14].

لقد كانت صفحة حياة رسول الله ﷺ كما نقلت إلينا بكل دقة وتوثيق -أخلاقية إنسانية بلغت من السمو غاية ما يستطيع إنسان أن يبلغ، وكانت لذلك أسوة حسنة لمن هداه الله أن يحاول بلوغ الكمال الإنساني من طريق العمل الصالح، وأي سمو في الحياة كهذا السمو الذي جعل حياة محمد ﷺ قبل الرسول مضرب المثل في الصدق، والكرامة، والأمانة، كما كانت بعد الرسالة كلها التضحية في سبيل الله وفي سبيل الحق الذي بعثه الله به، تضحية استهدفت حياته من جرائها للموت مرات، فلم يصده عنه أن أغراه قومه -وهو في الذروة منهم حسبًا ونسبًا- بالمال والملك وكل المغريات"[15].

لقد جبل النبي ﷺ على الأخلاق الكريمة في أصل جبلته بالفضل الوهبي والجود الإلهي، من غير رياضة ولا تعب، بل لم تزل أنوار المعارف تشرق في قلبه حتى اجتمع فيه من خصال الكمال ما لا يحيط به حد ولا يحصره عد، ومن ثم أثنى الله تعالى عليه في كتابه العزيز فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: 4]، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113] [16].

إن الأخلاق العالية في شخصية الرسول العظيم ﷺ متلازمةٌ مع دقائق حياته وسائر تصرفاته، إنها مَنْسابةٌ فطريا عبر كل سلوك من سلوكاته وحركة من حركاته وفعل من أفعاله وقول من أقواله فضلا عن كل خطرة من خطراته.

المنارة للاستشارات
www.mar

تلك "الأخلاق الربانيةُ التي أظهَرَها النبيُّ الكريم، أقنَعت العربَ بأن حائزَها يجبُ ألا يكونَ إلاَّ مِن عندِ الله، وأن يكونَ رجلًا على الصراطِ المستقيم حقًّا، وكراهيتُهم المتأصِّلةُ في نفوسهم حوَّلتها تلك الأخلاقُ الشريفة إلى مَحبَّةٍ وصداقةٍ متينة"[17]..

ولذلك لما كان النبي ﷺ يعرض الإسلام على قبائل العرب، قال مفروق بن عمرو من بني شيبان بن ثعلبه: وإلام تدعونا يا أخا قريش، فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض. فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل: 90]. فقال مفروقٌ: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أَفِكَ قوم كذبوك وظاهروا عليك [18].

وقال عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ الطَّائِيُّ: «بعث رسول الله ﷺ بالنبوة ولا أعلم أحدا من العرب كان له أشد بغضا مني ولا أشد كراهية له مني حتى لحقت بأرض الروم فتنصرت فيهم، فلما بلغني ما يدعو إليه من الأخلاق الحسنة، وما اجتمع إليه من الناس، ارتحلت حتى أتيته فوقفت عليه»[19]. ثم أعلن إسلامه بسبب ما يدعو إليه من محاسن الأخلاق.

وقال أبو ذر ﷺ لما بلغه مبعث النبي ﷺ، قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاسمع من قوله، فرجع فقال: «رأيتُه يأمر بمكارم الأخلاق»[20].

ولما سأل النجاشي المهاجرين إلى الحبشة عن سبب مفارقتهم لقومهم بقوله: ما هذا الدين الذي أنتم عليه، فارقتم دين قومكم، ولم تدخلوا في يهودية ولا نصرانية، فما هذا الدين؟

أجابه الناطق باسم المسلمين جعفر بن أبي طالب ﷺ: أيها الملك كنا قومًا على الشرك: نعبد الأوثان، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئًا ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبيًا من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلي ونصوم، ولا نعبد غيره[21].

وبكلمة كان يأمرهم بمكارم الأخلاق.

المنارة للاستشارات
www.mar

وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في كمال خلق رسول الله ﷺ: «كان أحسن الناس خلقا، لم يكن فاحشا، ولا متفحشا، ولا سخابا بالأسواق، ولا يجزئ بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح»[22].

ولو لم يكن سيدنا رسول الله ﷺ لينا، دمث الأخلاق، عفوا، حليما، رحيما، حنونا، أمينا، صدوقا، عدلا...، لتفرق عنه العرب الذين نشأوا على العنجهية والإباء والشمم إلى حدّ الإسراف في الصلابة، ولرأفته بهم وحدبه عليهم قال الله جل وعلا فيه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]. فمنّ الله تعالى على العرب بهذا الرسول العظيم، وقال لهم: إنه يعزّ عليه أن تبقوا في ضلال، ويشقّ عليه أن تعمهوا في ظلمات الكفر والشرك ومساوئ الأخلاق وقبائح الفعال، وأن تعرضوا عن الحقّ وتلجّوا في عتوّ ونفور، وهو يبغي صلاحكم، ويودّ خيركم، ويحب فلاحكم، وهذا هو الذي يدعوه إلى نصحكم، ويحفزه لهدايتكم إلى محاسن الأخلاق ومكارمها وفضائلها، وإبلاغ رسالتها إليكم، فمن لبّى دعوته، وقبل رسالته، وأقبل على ما عند الرسول ﷺ من الحق البيّن، والخير الكثير؛ فاز فوزا عظيما، وارتقى مرتقى عاليا، وحظي بمقعد الصدق عند مليك مقتدر[23].

ولله در أمير الشعراء أحمد شوقي القائل في مدح المصطفى ﷺ:

يا مَنْ لَهُ الأخلاقُ ما تَهْوَى العُلا * مِنْها وَما يَتَعَشَّقُ الكُبَراءُ

لَو لَمْ تُقِم دِينًا، لَقامَتْ وَحْدَها * دِينًا تُضِيءُ بِنورِهِ الآناءُ

زانَتْكَ في الخُلُقِ العَظيم شَمائِلٌ * يُغرَى بِهِنَّ وَيُولَعُ الكُرَماءُ.

لقد أتى على العالم حين من الدهر فسدت فيه العقائد، وانتشرت الوثنية، وانتكست فيه الأخلاق، وسادت فيه الجهالات والخرافات، وعم التقليد حتى كادت تتعطل فيه ملكة العقل والتفكير، وتغيّرت فيه القيم الخلقية والمعاني الإنسانية، وأهدر فيه الكثير من حقوق الإنسان، وتغلبت فيه قوى الشر والبغي والضلال على دعاة الحق والخير والهدى، وساد العالم ألوان من الترف والإغراق في الملذات والشهوات، سواء في ذلك البيئات المتحضرة أم البدوية.

المنارة للاستشارات
www.mar

ذلكم الحين هي الفترة التي سبقت ميلاد حبيبنا محمد ﷺ وبعثته. فقد كانت أحوال العالم الدينية، والاجتماعية، والأخلاقية، والسياسية على أسوأ ما تكون، حتى إن أعظم المتفائلين كان يشك في أن يكون لهذا الفساد إصلاح!! [24].

ولئن كان الفساد والاضطراب قد ساد العالم المعروف قبل البعثة المحمدية، لكن النبي ﷺ جعل حياته كلها حياة تزكية وتعليم، وتأديب وتهذيب، لينقذ العالم من منكرات الأخلاق، ورذائل الصفات، وقبائح الأعمال، ويخرج الناس من ظلمات الجهل والظلم والطيش والشرك إلى نور الأخلاق العالية والآداب المرضية والقيم السامية والخصال الحميدة.. وبحسبنا شاهدا على هذا أنه بعث إلى قوم يعبدون الأصنام، ويسفكون الدماء، ويعتدون على الأعراض والأموال، ويتظلمون، ويتعاملون بالربا، ويشربون الخمر، ويغشون الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ويتفاخرون بالأحساب والأنساب، فلم يزل بهم يربيهم ويتعهدُهم حتى صيّر منهم موحدين أتقياء، وحكماء علماء، وحلماء رحماء، وإخوانا متحابين أصفياء، وكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس في عقيدتها وعبادتها، وعلمها وعملها، وأخلاقها وسلوكها.

من كان يظن أن معاقل الوثنية في الجزيرة العربية تصبح منارات للتوحيد الخالص؟ ومن كان يظن أن العرب -وهم أشد الناس اعتزازا وتفاخرا بالأحساب والأنساب- يصبحون أكثر الأمم اعترافا بالمساواة وتطبيقا لها؟ حتى لقد تسنّى لبلال الحبشي العبد الأسود أن يكون أول مؤذن في الإسلام!! وحتى قال عمر بن الخطاب العدوي القرشي في الصدّيق ومولاه بلال: «هو سيدنا، وأعتق سيدنا»[25]. وحتى عقل بلال خالد بن الوليد المخزومي القرشي بعمامته، تنفيذا لأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، واستسلم خالد له!! [26] إنها الأخلاق، والتربية الأخلاقية النبوية للصحب الكرام ﷺ.

لم يكتف النبي ﷺ بإخراج الناس من مساوئ الأخلاق إلى محاسنها، ولم يكتف بالبناء الأخلاقي للصحابة الكرام ﷺ وإنما حض أمته من بعده على التحلي بالأخلاق الحسنة والآداب المرضية لما فيها من أمن روحي واستقرار نفسي وسعادة خالدة في الدنيا والآخرة.

عن ابن مسعود ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم حسَّنتَ خَلْقي فحَسِّن خُلُقي»[27].

المنارة للاستشارات
www.mar

وكان من دعائه ﷺ: «وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ»[28].

كما كان ﷺ يتعوذ من سوء الأخلاق فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من الشقاق، والنفاق، وسوء الأخلاق»[29].

عن أبي هريرة ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يلج الناس به النار، فقال: «الأجوفان: الفم والفرج»، وسئل عن أكثر ما يلج به الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «حسن الخلق»[30].

الأجوفان كناية عن سوء الخلق، إذ الأخلاق السيئة تؤدي إلى النار والعياذ بالله. أما الأخلاق الحسنة فإنها تأخذ بيد صاحبها إلى الجنة.

وعن أبى الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق»[31].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانا، أحسنهم خلقا»[32]. وفي رواية جابر بن سمرة رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «أحسنُ الناس إسلاما، أحسنُهم خلقا»[33].

هكذا يربط النبي ﷺ بين الإسلام والأخلاق، والإيمان والأخلاق، برباط وثيق، فلا إيمانَ بلا أخلاق، ولا إسلام بلا أخلاق، ولا دين بلا أخلاق، ولا إنسان بلا أخلاق.

كما كان النبي ﷺ يربي أصحابه ﷺ على الأخلاق ويوصيهم بالتحلي بالأخلاق الحسنة في السلوك والمعاملة: عن معاذ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال له: «يا معاذ، أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[34].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[35].

المنارة للاستشارات
www.mar

إن الإسلام بمقتضى هذا الحديث عبارة عن رسالة أخلاقية مثلى، بحيث يكون مدار الأمرية فيه على تحصيل السلوك الصالح، سواء بالنسبة للفرد أو بالنسبة للجماعة؛ وعلى هذا، فكل أمر من أوامره تعالى يجب أن يقترن على الأقل بقيمة خلقية واحدة ينبغي أن يسعى تنفيذ هذا الأمر إلى تحقيقها في سلوك الفرد او الجماعة؛ وبذلك ينبني الأمر الإلهي – أو الحكم الشرعي- على مقومين: قانوني وأخلاقي، مع وجود تفاوت بينهما، إذ يقدم المقوم الأخلاقي على المقوم القانوني، لأن فائدة الأمر -أو الحكم- ليست في التطبيق الخارجي من حيث هو كذلك، ولكن في الإصلاح الخلقي الذي ينتج عنه[36].

أضف إلى ما تقدم فإن الحديث السابق يبيّن فيه سيدنا رسول الله ﷺ ما قدّمه إخوانه أنبياء الله ورسله -عليهم الصلاة والسلام- للحياة من إصلاح وتقدّم، يقوم على القيم الروحيّة، والفضائل الخلقيّة، ومبيّنًا مكانته منهم في رسالته الخاتمة، مكمّلًا ما أسّسوا، وما أقاموا من حضارات إنسانيّة رفيعة الشأن!

ويبيّن -أيضًا- أن بناء الحضارة الذي أقامته النبوّة بكلمات الله ووحيه ليس بناءً ماديًّا كأبنية الناس في حضاراتهم الماديّة، ولكنه بناء روحاني يقوم على دعائم الأخلاق والفضائل، ومحاسن الشيم والشمائل التي شيّدوا بها بناء الحضارة الفكريّة والاجتماعيّة!

وقد أبان الحديث عن عمل النبوة باعتبارها الحقيقة العظمى المسيطرة على التفكير في إقامة صرح العمران الآدمي، بإسهام كل نبيّ وكل رسول في إرساء هذا البناء حتى جاء خاتم النبيّين ﷺ، وكمّله برسالته الخاتمة الخالدة!

وهذا المعنى الذي أبان عنه الحديث هو بيان المعاني الخلقية والحقائق القيمية التي أقيم عليها بناء الحضارة الإنسانيّة[37].

وفي صدد الحديث عن مكانة الأخلاق في السيرة النبوية وفي سياق الحديث عن مقصد إتمام مكارم الأخلاق في ضوء الحديث النبوي الشريف المتقدم، فإنه "لا يصح أن تكون البعثةُ النبويةُ على جلالها من أجل ما هو كمالي لا حرج من تركه، وإنما ينبغي أن تكون من أجل ما هو أمر ضروري لا يجوز أبدا تركُه، كما لا يصح أن يكون الإتمامُ الذي تستهدفه هذه البعثة

المنارة للاستشارات
www.mar

يتعلق بجزء معين من الإسلام، وإنما ينبغي أن يتعلق بكلية هذا الدينِ باعتباره الطورَ الخاتِمِ لأطوار التشريع الإلهي المنزل"[38].

ومن هنا اعتبر النبي ﷺ دينَه الذي شمَل كلَّ أسباب الهداية والخير، وانتظمَ كافةَ السعادةِ في الدنيا والآخرة ليس إلا تتميما لصالح الأخلاق ومكارمها وحسنها.

ولذلك فإن "المنهاج الأخلاقي النبوي لا يقف عند الدعوة إلى مكارم الأخلاق وتمجيدها، إنه هو الذي يرسي قواعدها ويحدد معالمها ويضبط مقاييسها الكلية، ويضع الأمثلة للكثير من جزئيات السلوك، ثم يغري بالاستقامة ويحذر من الانحراف، ويضع الأجزية مثوبةً وعقوبة، على كلا السلوكين نُصبَ العين"[39].

وهكذا كان النبي ﷺ على خلق عظيم، وقد أوتي من حميد الخصال، ومعالي الأخلاق ما لم يؤتَ أحدٌ غيرَه مثلَه... وهذه الخصال العالية والأخلاق الفاضلة هي التي يتشرّف بها العالم، وتسعى الأمم للتحلّي بها، وحيثما وجدتم من هذه الخصال الحميدة والفضائل النبيلة أثرا وجدتم الخير والسعادة والأمن والطمأنينة.

لقد نهج النبي ﷺ بذلك منهاجَ السعادةِ للحياة الاجتماعية، وبيّن للناس ما تعلو به نفوسُهم، وما تسفُل به، وما تكون به شريفةً أو منحطةً، فكُمِلَتْ الثقافةُ الإنسانية برسالاته، وبلغ العمرانُ الإنسانيُ بذلك مبلغَ الكمالِ، وتيسّر للمجتمع البشري أن يكون صالحا إذا شاء، وقد أصبح من المتعارف عند الناس أنّ الأخلاق الفاضلة، والسيرة الطاهرة هي شرفُ الإنسانيةِ ومجدُها، ومكارمُ الأخلاق ومحاسن العوائدِ أصلُ الإنسانيةِ وجوهرها[40].

المبحث الثاني: الغايات الوظيفية والأبعاد الكلية للمنظومة الأخلاقية

إن المنظومة الأخلاقية تقصد إلى إعادة التشكيل الكلي للإنسان، وإخراجه من حيوانيته وتِيهِه وتحريره من شهواته وأبتريته وأوهامه وهواه وورطته للارتقاء به إلى إنسان الفطرة والإنسانِ الكامل والإنسان الكوثر الذي يكثر خيره ونفعه وعطاؤه، والسفرِ به من عالم الملك إلى عالم الملكوت.

المنارة للاستشارات
www.mar

وعِلاوةً على ذلك فإن الارتقاء الأخلاقي يستوعبُ الإنسانَ والعمران، والمجتمع والأمة؛ إذ بإصلاح الإنسان يصلح المجتمعُ وبإصلاح المجتمع تصلح الأمة وبصلاح الأمة يصلح العمران، وبكل هذا ترتقي الأمةُ إلى مرتبة الأمة الشاهدة، ويُحفظ العمران ويزدهر.

وبناء على هذا التصور نجمل أهمَّ الغايات الوظيفية والأبعاد الكلية للارتقاء في الآتي:

1- **استقامة النفس وإصلاح الحال**:

إن الأخلاق هي روحُ الإسلام، ومعقِدُ الإيمان، وهي الدِّعامة الأولى والحجر الأساس لاستقامة النفس وإصلاح الحال. ولذلك كان القصدُ الأكبرُ من العروج الأخلاقي هو إصلاح النفس وتزكيتُها ليكون السلوكُ قويما ومحققا لصلاح المكلفين في المعاش والمعاد.

ذلك بأن مكارم الأخلاق تعرج بصاحبها إلى أعلى المنازل وأرفع المراتب، أما الأخلاقُ الدنيئة فإنها تَضع الشرف وتنزل بصاحبها إلى مقام الأنعام أو أضل.

ولله در الإمام البوصيري القائل:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه * فقوم النفسَ بالأخلاق تستقم

إن صلاح الأمر من صلاح الأخلاق، ولكي تستقيم النفس يجب أن تقوم بالأخلاق[41].

والحاصل أن إخراج النفس من تيهها يستلزم تهذيبَها بمكارم الأخلاق، وإحياءها بمحاسن القيم؛ إذ بها تحقق كمالها وسعادتها القصوى بإدراك أسمى المعارف ومراتب اليقين، والارتقاء إلى عوالم الفضيلة.

فبالأخلاق المستحسنات تحيا النفسُ وتستقيم، وبموتها تموت وتندثر، وبالأخلاق المرضية تتحول النفس من الأمارة بالسوء أو الشهوانية إلى النفس المطمئنة العاقلة العارفة.

وبالتخلق بأخلاق سيد المرسلين وتزيين القلب بها ترتقي النفس في مقامات المقربين، وتحصل سعادة في الدارين، وتنال رضى رب العالمين.

المنارة للاستشارات
www.mar

وهكذا فإن أثر الأخلاق الحسنة في النفس لا تخص جانبا معينا فقط، بل إنها لتهيمن عليها حتى لا تدع حركة من حركاتها ودقيقة من دقائقها إلا وشملته، بحيث تصوغها صياغة ربانية تمس كل مواطنها وجوانبها.

2- **بناء الإنسان الكوثر**:

إن آدمية الإنسان لا تتحقق إلا بتحلّيه بمكارم الأخلاق ومحاسنها، وتخلّيه عن آفاتها ومساوئها ومقابحها، وأخذِه في جميع أحواله بقوانين الفضائل والمحامد، وبعده عن طريق الرذائل والنقائص، فلا إنسان بلا أخلاق.

وفي هذا الصدد يقول المفكر الإسلامي والفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن: "لقد غلب على الظنون منذ زمن بعيدٍ أن الأخلاق هي مجرد أفعالٍ محدودة من أفعال الإنسان، وأنها لا تدخل في تحديد ماهيته أو باصطلاح المعاصرين هويتِه، بقدر ما تدخل في تحديد جانبٍ من سلوكه؛ وهذا باطل كليًا، وبيان بطلانه أنه ما من فعل من أفعال الإنسان إلا ويقترن إما بقيمة خُلقية عليا ترفع هذا الفعل درجةً؛ فتزداد إنسانية صاحبه، أو بقيمةٍ خُلقية دنيا تَخفِضُ هذا الفعل درجةً؛ فَتنقُصُ إنسانية صاحبِه.. وهذا يصح حتى ولو كان الفعل مجرد فعل ذهني، لا فعلا عينيا، فقد يريد الإنسان بهذا الفعل الذهني جلب خيرٍ أو دفع شر؛ فيرتقي به إلى أعلى، أو يريد به جلب شر أو دفع خيرٍ؛ فينحطّ به إلى أسفل، بحيث يكون الحدّ الفاصل بين الإنسانِ والبهيمة ليس هو -كما رسخ في الأذهان- قوة العقل، وإنما هو قوة الخُلق، فلا إنسان بغير خُلق، وقد يكون العقل ولا خُلق معه، لا حسنا ولا قبيحا، وهو حال البهيمة ولو قلّ نصيبها من العقل عن نصيب الإنسان منه"[42].

فالأخلاقية هي وحدها التي تجعل أفق الإنسان مستقلا عن أفق البهيمة، وهي الأصل الذي تتفرع عليه كل صفات الإنسان من حيث هو كذلك[43].

فبالأخلاق يحقق الإنسان إنسانيتَه، وبها يصل الإنسان إلى الكمال الإنساني ويخرج من دائرة الحيوانية إلى دائرة الآدمية.

المنارة للاستشارات
www.mar

يقول مؤرخنا الحكيم عبد الرحمن بن خلدون: "وإذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيّته وصار مَسْخا على الحقيقة"[44].

ذلك بأن "الأخلاق ليست كمالاتٍ بمعنى زيادات لا ضرر على الهوية الإنسانية في تركها، وإنما هي ضروراتٌ لا تقوم الهويةُ بدونها، بحيث إذا فُقدت هذه الضرورات فقدت الهوية، وإذا وُجدت وُجدت الثانية، بدليل أن الإنسان لو أتى ضدَّها – أي ساءت أخلاقه- لعُدَّ لا في الأنام، وإنما في الأنعام، بحيث يتعين أن نعتبرها بمثابة مقتضيات تدخل في تعريف هوية الإنسان نفسها، ولن يتأتى لنا هذا إلا إذا جعلنا وجود الإنسان، لا متقدما على وجود الأخلاق، وإنما مصاحبا لوجودها"[45].

ومن ثم فإن الأخلاق صفةٌ للإنسان، بحيث يكون له من وصف الإنسانية على قدر ما يتحقق به منها، فإذا زادت هذه المعاني والقيم زاد هذا الوصف، وإذا نقصت نقص، يترتب على هذا أن هوية إنسان ذاتُ طبيعةٍ أخلاقية[46]، وعليه فإن كل فعل يأتيه الإنسان يكون سببا من أسباب تخلقه بما في ذلك فعلُ العقلِ نفسِه، لأن إنسانيته مستمدةٌ من هذا التخلق الذي لا ينقطع إلا بانقطاع حياته[47].

فبالبناء الأخلاقي نستطيع تغيير جميع أنماط السلوك الإنساني وقد رأينا كيف غيرت دعوة رسول الله ﷺ العرب في أقصر فترة، إلى أعظم أنماط السلوك الإنساني ووسائله على مرِّ التاريخ والعصور.

لأن الأخلاق تولد في النفس قوة وطاقة كبيرة تتدفق في كل قوى الإنسان، ظاهرة كانت أو باطنة، فتصوغه من جميع الوجوه صياغة شاملة حتى كأنه خلق جديد، يتصف بالتكوثر الموجب لحصول الإيمان الدفاق وبالتثوير الموجب لحصول العمل التواق لكي يستعيد وظيفته الرسالية المفقودة[48].

ومن ثم فإن بناء الإنسان الكوثر لا يمكن أن يتم إلا عن طريق إحياء الأخلاق الحسنة في سلوكه وأفعاله وتصرفاته، في ظاهره وباطنه.

المنارة للاستشارات
www.mar

ذلك بأن المقصد الأسمى للمنهاج النبوي هو حفظُ الأخلاق وحفظ الإنسان؛ إذ حفظُهما معا يكون بإخراج الإنسان من وضع الآلة إلى وضع الآية، والارتقاءِ به من وضع السلعة إلى وضع الهبة، ومن حضيض الحيوانية إلى مقام الآدمية المكرمة؛ ولا يتحقق ذلك إلا بالتزكية الأخلاقية.

"إن الأخلاق هي الصفات التي تحدد ماهية الإنسان في ترقيها إلى الخالق سبحانه وتعالى؛ إذ القيم الخلقية مستمدة من أسماء الكمالات الإلهية التي هي الأسماء الحسنى، أي مأخوذة من الصفات التي تحدد الماهية الإلهية في تنزلها إلى الإنسان.

ومن ثم فإن ترقي الإنسان في سلم الأخلاق ليس له حد يقف عنده، لأن هذه الماهية لا يمكن أن تترقى إلا في هذه العوالم اللامتناهية.

وبناء على هذه الحقائق التي تصل الإنسان بأفق الكمال اللامتناهي، نستيقن أن الارتقاء بالماهية الإنسانية أكبر بما لا يتناهى من أن ينهض بها الفرد الواحد، فيحرص أشد ما يكون الحرص على أن يتعاون مع الآخرين في النهوض بهذا الارتقاء على قدر الطاقة؛ ومن هنا فالتعاون الأخلاقي ضرورة ومطلب أساس، ويتخذ هذا التعاون وجهين:

أحدهما: التعاون على تحقيق القيم الأسمائية.

والثاني: التنافس في الارتقاء بخلق الآخر فضلا عن الارتقاء بخلق الذات[49].

3- بناء المجتمع الصالح والعمران الإنساني:

لما تخلى الإنسان المعاصر عن التخلية والتحلية، انهار المجتمع بانهيار منظومة القيم والأخلاق، فحل الشرُّ محل الخيرِ، والفساد محل الصلاح، والظلم محل العدل، والشقاوة والألم محل السعادة واللذة، واتباع الهوى محل مجاهدة النفس..

ولا تعود مجتمعاتُنا المعاصرة إلى ما كانت فيه من عز وأمن واستقرار إلا حينَ يرجع أفرادُها إلى الأخلاق والقيم التي تصل بهم شأوا بعيدا من المجد والسمو والرفعة والازدهار.

المنارة للاستشارات
www.mar

ذلك بأن الأخلاق هي الجامعُ بين مكونات المجتمع، وبالمخالقة تنهض المجتمعات، وتحافظ على أمنها واستقرارها واستمرارها.

وفضلا عن ذلك فإن الأخلاق "لا تخص صلاحَ الفرد الواحد ولا صلاح الأمةِ الواحدة، وإنما تبتغي صلاحَ البشريةِ قاطبة، بل تبتغي صلاح جميع المخلوقات التي في عالم الإنسان، ذلك بأنها ترفع همةَ الإنسان إلى أن يأتي أفعاله على الوجه الذي يجعل نفعَها يتعدى نفسَه وأسرته ووطنه إلى العالم بأسره، بحيث تكون كلُّ بقعةٍ من العالم وطنا له ويكون كلُّ إنسان فيها أخا له ويكون كل كائن سوى الإنسان نظيرا له في الخلَق"(50).

ومن هنا فإذا كان المجتمع ليس في حقيقته سوى مجموعةِ الأفرادِ الذين يتألف منهم، فمعنى ذلك أننا بإزاء مجتمع متماسك البنيان، راسخ الأركان، سائر إلى الأمام، مطرّد النمو، لأن الأخلاق الإسلامية تعتمد في بنائها للمجتمع على بناء أخلاق أفراده ومكوناته.

ومن ثم جاءت الأخلاق القرآنية بصبغة اجتماعية واضحة؛ لأن المقصد منها هو تنظيم المجتمع البشري على أساس أخلاقي، لا يتسرب إليه الوهن والفساد.

وعليه، فإذا كانت للمنظومة الأخلاقية الإسلامية أثرُها العظيم في استقامة النفس وإصلاح الإنسان وتماسك المجتمع، فمن الطبيعي أن يكون لها أثرُها في البناء العمراني الإنساني الأخلاقي الشامل.

وبناء على هذا التصور فإن المجتمع والحضارة أو العمران لا يزالان قائمين مستقرين آمنين ما دامت تسودُهما الأخلاق وتنظم شؤونَهما وتضبط كلَّ شيء فيهما. وكلما ساءت وضعفت وتلاشت كان ذلك إيذانا بالخراب والانهيار وتناثر حَبات عِقدهما وانفكاك عراهما.

ذلك بأن فقدانَ الأخلاقِ سلطانُها على النفوس في المجتمعات البشرية عبر التاريخ وفي واقعنا المعاصر كانت هي قاصمة الظهر التي أحدثت انكسارا مهولا مريعا في البناء الاجتماعي والحضاري؛ أي أن أزمتنا اليوم وأمسِ هي أزمةُ أخلاق، وانهيارُ صرح الأخلاق هو العلامة المباشرة في تخلفنا وغثائيتنا اليوم.

المنارة للاستشارات
www.mar

4- الشهادة على باقي الأمم:

إن الشهود على الناس لا يتحقق بغير السمو الأخلاقي الحي؛ إذا كان الحق سبحانه وتعالى قد كرم الإنسان في شخص المسلم بأن أشهده على غيره من الناس، فلا يرجع سببُ هذا الإشهاد إلى تمكن المسلم في الأرض، متوسلا بالمعرفة العلمية والقوة المادية، لأن هذا التمكنَ هو في الحقيقة نتيجةٌ للإشهاد وليس سببا له؛ وإننا لنعجب لمن يرى أن استعادة المسلم لرتبة الإشهاد تقضي بأن يحذو حذو المشهود عليهم في إقامة صروح العلميات والتقنيات، إذ إنه يُكتفى في إقامة هذه الصروح بالعقول الضيقة والإرادات القلقة؛ وهذا الإنجاز العلمي التقني، على عظمة قدره لا يحصل معه بالضرورة شهود، وكل ما يحصل معه لا يتعدى الثبوت؛ وشتان بين الرتبتين، فالثبوت قاصر على عالم الشهادة، والشهود متعد إلى عالم الغيب؛ وما هذا العجب إلا أثر من آثار العلمنة التي تعمل عملها في النفوس من حيث لا تشعر؛ والحق أن الأصل في هذا الإشهاد الإلهي هو أن الحق سبحانه وتعالى سدد المسلمَ إلى مقاصد دينه وأخلاقه وقيمه وجعلها قبلتَه، موسعا عقله، ثم أمده بأنباء وآيات وسنن وأحكام وقيم وجعلها طريقه إلى قبلته، مثَبتا إرادته؛ وعلى هذا فلا تعود هذه الرتبةُ الربانية المفقودةُ الآن إلى هذا الإنسان إلا إذا اهتدى إلى الأسباب التي يوسع بها عقله ويثبت بها إرادتَه؛ ولن يهتدي إلى هذه الأسباب إلا بحصول تحولٍ في القلب يحييه بعد موته، مصلحا أخلاقه بعد فسادها؛ ولا تحول له إلا بتجديد الصلة بالذي تفضل عليه بنعمة الإشهاد جل وعلا، هذا التجديدُ الذي يمده بما يحتاج من التأييد، ولا تجديد إلا بأخلاق القرآن وقيم النبوة بشقيها السلوكي والروحي[51].

خاتمة البحث:

تأسيسا على ما سبق نصل إلى النتائج الآتية:

- إن الاقتداء بالأخلاق النبوية تكسب المؤمنَ في الدارين شرفا، وتبوئه من الجنان مقاعدَ، وتخرجه من معيشة الضَّنْكِ إلى سَعة العيش.

- إن الأخلاق الحسنة هي قطبُ السعادة ومدارُها، وهي طريق نيل الرضوان، أما الأخلاقُ السيئة فهي عينُ الوبالِ والخسران.

المنارة للاستشارات
www.mar

- إن بناء صرح الأخلاق مقصَدٌ رسالي، وضرورة شرعية، وواجب ديني وإنساني، فلا إنسانَ بلا أخلاقٍ، ولا أخلاق بلا دين.

- إن الأخلاق أساسُ الاعتقاد فلا اعتقاد بلا أخلاق، وكلُّ عقيدة لا تثمر خلقا لا يعول عليها.

- إن الأخلاق الحميدة الحسنة والقيم النبيلة الفاضلة اللاتي ازدانت بها السيرةُ النبوية العطرةُ ولم تخرج عنها تصرفاتُه ﷺ وحركاته وأفعاله وأقواله هي سبب سعادةِ الأمةِ ورقيها، وبقاءِ حكمها ودولتها، واستمرار خيريتها وشهادتها.

- إن الارتقاء الأخلاقي لا يتحقق إلا بالسير على المنهاج الأخلاقي النبوي في تطهير النفس مما عَلِق بها من دنس الذنوب والمعاصي، وتخليتُها من مساوئ الخصال، ثم ترقيتُها بمحاسن الأخلاق ومكارمها.

- إن القصد الأول لأخلاق النبوة هو إسقاط الأخلاق الذميمة للنفس وقيامُ الأخلاقِ المحمودة بها، والقضاءُ على الشر في النفس الحيوانية لتصبح نفسا مطمئنة.

- إن المقصد الأعظم من السمو الأخلاقي هو تزكيةُ نفسِ الإنسان، وتحويل وجهته نحو الصلاح، وتغييرُ إرادته نحو الإصلاح، بذلك يحقق حالةَ السواء، ويحافظ على الأمانة، ويتدرج في مراقي العمران، ويكونُ أهلا للشهادة على الأمم..

وفي الأخير إن الترقي الأخلاقي في ظلال المنهاج النبوي يَصُوغُ لنا إنسانا سويا يسير على صراط مستقيم، غايتُه رضا الله تعالى، مما ينتج عنه مجتمع صالح على مختلف الصُّعُد الحياتية تقل فيه الشرور والمساوئ، ويتحقق فيه الأمنُ الروحي والاجتماعي والازدهار الحضاري.

والحمد لله في البدء والختام والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير الأنام وآله وصحبه الكرام.

المنارة للاستشارات
www.mar

ثبت المصادر والمراجع:

1. الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: 256هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية -بيروت، ط3: 1409هـ/1989م.

2. أشرف الوسائل إلى فهم الشّمائل (ومعه: جواهر الدّرر في مناقب ابن حجر)، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس (المتوفى: 974هـ)، تحقيق: أحمد بن فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1: 1419هـ/ 1998م.

3. بحوث في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، لعبد الشافي محمد عبد اللطيف، دار السلام، القاهرة، ط1: 1428ه/2007م.

4. ثلاثية البردة بردة الرسول ﷺ، حسن حسين، دار الكتب القطرية، الدوحة، ط1: 1400ه.

5. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺوسننه وأيامه (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1: 1422هـ.

6. الجامع الصحيح للسيرة النبوية، الأستاذ الدكتور سعد المرصفي، مكتبة ابن كثير، الكويت، ط1: 1430هـ/2009م.

7. حاشية السندي على سنن النسائي (مطبوع مع السنن)، محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي (المتوفى: 1138هـ)، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ط2: 1406هـ/ 1986م.

المنارة للاستشارات
www.mar

8. دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، تحقيق:محمد رواس قلعه جي، عبد البر عباس، دار النفائس، بيروت، ط2: 1406هـ/1986م.

9. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: 808هـ)، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2: 1408هـ/ 1988م.

10. الرسالة المحمدية، سليمان الندوي الحسيني (المتوفى: 1373هـ)، دار ابن كثير، دمشق، ط1: 1423هـ.

11. روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، ط3: 2013م.

12. سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، ط4: 2013.

13. سؤال العنف بين الائتمانية والحوارية، طه عبد الرحمن، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، ط1: 2017.

14. سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد، طه عبد الرحمن، ط1: 2015م، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت.

15. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: 275هـ)، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط1: 1430هـ / 2009م.

16. السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (المتوفى: 1403هـ)، دار القلم، دمشق، ط8: 1427هـ.

المنارة للاستشارات
www.mar

17. شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط1: 1423هـ/ 2003م.

18. شمائل الرسول ﷺ، أحمد بن عبد الفتاح زواوى، دار القمة، الإسكندرية.

19. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: 354هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط2: 1414ه/1993م.

20. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، 1379هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

21. فقه السيرة النبوية المفهوم والأسس والنماذج، رشيد كهوس، الدار المغربية-دار الكلمة، مصر، ط1: 1437هـ/2016م.

22. المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: 303هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، ط2: 1406هـ/ 1986م.

23. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

المنارة للاستشارات
www.mar

24. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1: 1421هـ /2001 م.

25. مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: 292هـ)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط1: ، (بدأت 1988م، وانتهت 2009م).

26. من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر، طه عبد الرحمن، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، ط1: 2016م.

27. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط2: 1392هـ.

28. الموسوعة في صحيح السيرة النبوية دراسة موثقة لما جاء عنها في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة والروايات التاريخية المعتمدة علمياً مرتبة على أعوام عمر النبي ﷺ (العهد المكي)، أبو إبراهيم، محمد إلياس عبد الرحمن الفالوذة، مطابع الصفا – مكة، ط1: 1423هـ.

29. الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: 179هـ)، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية - أبو ظبي – الإمارات، ط1: 1425هـ/ 2004م.

30. وَا مُحَمَّدَاه ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، أبو التراب سيد بن حسين بن عبد الله العفاني، دار العفاني، مصر، ط1: 1427هـ/2006م.

المنارة للاستشارات
www.mar

الهوامش:

(1) مسند أحمد بن حنبل، 513/14..

(2) مسند البزار، 364/15.

(3) ينظر: فقه السيرة النبوية المفهوم والأسس والنماذج، رشيد كهوس، ص168.

(4) سيرة ابن إسحاق، ص78. الموسوعة في صحيح السيرة النبوية (العهد المكي)، محمد الفالوذة، ص114.

(5) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟، ح3.

(6) شمائل الرسول ﷺ، أحمد زواوى، 152/2.

(7) فتح الباري، 24/1.

(8) شرح النووي على مسلم، 202/2.

(9) الجامع الصحيح للسيرة النبوية، المرصفي، 677/3-678.

(10) مسند أحمد، 148/41.

(11) حاشية السندي على سنن النسائي، 200/3.

(12) موطأ الإمام مالك، 1330/5.

(13) الجامع الصحيح للسيرة النبوية، المرصفي، 693/3.

(14) عبد الحليم عويس، الجزيرة العربية في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، نقلا عن بحوث في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، لعبد الشافي عبد اللطيف، ص14.

(15) حياة محمد ﷺ، محمد حسين هيكل، ص583.

(16) أشرف الوسائل إلى فهم الشّمائل، ص496.

(17) وَا مُحَمَّدَاهُ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، العفاني، 290/4.

(18) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، 282/1.

(19) نفسه، 562/1.

(20) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام أبي ذر الغفاري ﷺ، ح3648.

(21) سيرة ابن إسحاق، ص215.

(22) مسند الإمام أحمد، 131/43.

(23) ينظر: الرسالة المحمدية، سليمان الندوي، ص149.

(24) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، أبو شُهبة، 241/1.

(25) صحيح البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب بلال بن رباح، مولى أبي بكر، رضي الله عنهما، ح3544.

(26) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، أبو شهبة، 630/2.

(27) صحيح ابن حبان ، 239/3.

(28) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ح771.

(29) سنن النسائي، أبواب فضائل القرآن، باب في الاستعاذة، ح1546.

(30) مسند الإمام أحمد، 287/13.

(31) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، ح4799.

(32) مسند الإمام أحمد، 364/12.

المنارة للاستشارات
www.mar

(33) نفسه، 422/34.

(34) نفسه، 313/36.

(35) مسند الإمام أحمد، 513/14. شعب الإيمان للبيهقي، 352/10. الأدب المفرد للبخاري، ص104.

(36) روح الدين، طه عبد الرحمن، ص402.

(37) الجامع الصحيح للسيرة النبوية، المرصفي، 28/1-29.

(38) سؤال الأخلاق، طه عبد الرحمن، ص154.

(39) الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، ص208-209.

(40) الرسالة المحمدية، سليمان الندوي، ص33.

(41) ثلاثية البردة بردة الرسول ﷺ، حسن حسين، ص106.

(42) سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد، طه عبد الرحمن، ص72.

(43) سؤال الأخلاق، طه عبد الرحمن، ص14.

(44) تاريخ ابن خلدون، ص468.

(45) سؤال الأخلاق، طه عبد الرحمن، ص54.

(46) نفسه، ص147.

(47) نفسه، ص153.

(48) ينظر: من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر، طه عبد الرحمن، ص48.

(49) سؤال العنف بين الائتمانية والحوارية، طه عبد الرحمن، ص205-206.

(50) سؤال الأخلاق، طه عبد الرحمن، ص158.

(51) ينظر: من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر، طه عبد الرحمن، ص65-66.

المنارة للاستشارات
www.mar

المنارة للاستشارات
www.mar